تعليم الصغار للقرآن شعار الدين
دراسة في المقاصد والوسائل

د/ أحمد معبوط
أستاذ بجامعة الجزائر/كلية العلوم الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فلقد صدّر الشيخ الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ديوانه للسنة النبوية "الجامع الصحيح"[1] بكتاب بدء الوحي، ولا غرو أنه يشير بذلك إلى معنى من المعاني العظيمة كما هي عادته في ترتيبه وتبويبه وتراجمه في هذا الجامع، الذي هو أجلّ كتب الإسلام بعد كتاب الله إطلاقا.

ومهما كان تحديد وتفصيل المعنى المقصود بهذا الصنيع فإنه لا يماري أحد في أن قيام هذه الأمة الإسلامية وبعثها إنما كان ببدء الوحي، إذ هو أساس دينها ومصدر معارفها وقوام عزّها ومنعتها وشرط صلاحها في العاجل والآجل.

بل إن آثاره صبغت مسارات غيرها من الأمم التي لم تؤمن به لكن نالتها أفضاله، فسطعت شموسه عليها، وكان من تجلّيات ذلك ما اصطلحت عليه الإنسانية من قيم وأخلاق حسنة ومواثيق وأعراف صالحة ما كانت لتدركها لولا تأثّرها بالحضارة التي صنعها الوحي وأتمّ بها رسالة الأنبياء من قبل، فراحت تنير العقول وتهذّب النفوس وتنأى بهذه الأمم عن كثير من الأخطار التي تهدّدها بما تكسبه كل حين من أسباب الإفلاس والفناء.

وإذا كان وراء كل منظومة تعليمية أو تربوية فلسفة من خلالها تحدّد الأهداف والمقاصد وتتّخذ الوسائل والمناهج وفي إطارها يكون الجهد منتجا والبذل موفورا، حتى أنه إذا حدث خلل ما في مسار أمة من الأمم في زمن من الأزمنة أو مكان من الأمكنة كان الرأي التفتيش في كل مِفصل من تلك المفاصل طلبا للعافية والسلامة والاستقرار وطمعا في السؤدد والعزة والمنعة، فإن

ما ألمحنا إليه من قبل يؤكد لكل ذي لب ما ينبغي أن يكون لتعليم القرآن الكريم من مكانة في بناء الأجيال وإصلاح الأمة.

ولا غرو أن تتعدد وتتنوع التجارب التعليمية والتربوية بين الأمم، بل وعند الأمة الواحدة مهما توسّعت أو تقلّصت دائرة ثوابتها.

ولا يزال هذا التنوّع مبَرَّراً وصحيّا ومفيدا ما دام ينطلق من اجتهاد علمي صحيح يحقق لكل أمة أهدافها ومقاصدها ومصالحها، لا من استنساخ وتقليد يقوم على محاكاة الغير دون تبصّر، إذ لا قداسة لقديم لمجرّد قدمه ولا لحديث لمجرّد حداثته، فلا مناص من اجتهاد لا شائبة للتقليد فيه.

ولقد تناول العلامة عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمة تاريخه الشهيرة في عدد من فصولها بالوصف والتحليل واقع التعليم في الأمة عامة، وعَقَد لتعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه فصلا خاصا[2]، وأتبعه بفصل آخر يعالج فيه ضرر الشدة على المتعلمين لاسيما الصغار منهم[3]، يحسن بنا الوقوف عليها فإنها جديرة بالبحث والنظر سعيا لاستخلاص أدوات التبصّر الحكيم في حاضرنا ومستقبلنا.

أما الأول فقد قرر في بدايته "أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملّة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم"[4]، فهذا وصف حال الأمة مع هذه المسألة فهو ينقل إجماعها في ذلك، وإجماعها حجة لأنها لا تجتمع على باطل كما دلّت عليه الأخبار المتواترة القطعيّة في تضافرها، فينبغي سلوك سبيلها.

وعلّل سلوك الأمة ذاك السبيل فقال: "لِما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن"[5]، فما يفعله القرآن في القلوب لا يقوى غيره عليه، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة.

وبذلك –كما يقول- "صار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصُلُ بعدُ من المَلَكات"[6].

فإذا تمسكت كل أمة بأصل لتعليمها يتفق مع فلسفتها ويحفظ هويتها، تبني عليه بعد ذلك ما تراه مناسبا في خدمة مقاصدها، سواء فيما وافقت غيرها

فيه أو خالفته، فلا بد أن نحرص على ما حبانا الله به من أصل عظيم نعتمد عليه في تعليمنا الذي هو كتاب الله المعجز.

ويشرح ابن خلدون سبب اتخاذ القرآن أصلا للتعليم بقوله: "أنّ التعليم في الصِّغر أشدُّ رُسوخا وهو أصلٌ لما بعده، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال من ينبني عليه"[7].

وإذا كان ما يُتَلَقَّى في الصغر أشدّ رُسوخا وهو أصل لما بعده، فإن كل أمة من الأمم تحرص على اختيار أحسن ما أنتجته حضارتها وثقافتها من مواد تربوية تترجم لهويتها لتكون السابق الأول في التربية والتعليم، وتكون بذلك الأساس الذي تتخرّج عليه أنواع المخرجات التربوية المتناغمة في خدمة مصالحها مجسّدة في أفرادها وما يشكّلونه من نسج وعلاقات، وحريّ بنا ونحن نقوم بما تقوم به الأمم في هذا العالم من حولنا في هذا الأمر أن نتخيّر أصدق وأحسن وأكمل وأشمل مادة تربوية أنعم الله بها علينا تضمّنها القرآن الكريم المعجز في بنيانه وموضوعه، ولن تجدي نفعا استعارة ما يميّز غيرنا من أجل ذلك مهما حاولنا، لأن نواتج التلفيق في العادة غريبة تَعرف منها وتُنكر، والحكم على الشيء فرع عن تصوّره.

ولا يفهم مما تقدم أن المقصود هو إلغاء ما يتفق العقلاء من مختلف الأمم على أنه من صميم مبادئ التربية والتعليم بفكرهم وتجاربهم، لأن هذا مناقض لمقاصد القرآن الذي نريده كما أراده أسلافنا أصلا في التعليم.

فالقرآن وهو يحثّ الناس على الفكر والتدبّر والتأمّل في الأنفس والآفاق يهدف إلى إعطاء الإنسان كل ما يحتاجه من حقائق وتصورات صادقة عن نفسه وخالقه والكون الذي يعيش فيه والعوالم الغائبة عنه وتحريره من كل الأوهام والخيالات التي ما فتئت تستعبد قواه العقلية والفكرية وتسخّر طاقته فيما يتعارض مع مصالحه الحقيقية ويعود عليه بالفساد والدمار. فهو بذلك يحرّر الفكر الإنساني ولا يحجر عليه، فكيف يمنع من ثماره الطيبة الأصيلة؟!!

بل إن القرآن كثيرا ما يحتكم في إثبات ما يريد إلى الحقائق العلمية الحيادية المقررة عند جميع العقلاء، فيضع بذلك موازين العلم حَكَماً بينه وبين

الناس، ويقرّر أن الإسلام لا يجذب الناس إليه بالإكراه وإنما بالحجة والبرهان، فلا غرو أن يتصل بسائر العلوم العقلية والكونية بأوثق العرى.

ومع اتفاق الأمة الإسلامية على اتخاذ القرآن الكريم أصلا في التعليم، فقد تباينت بعد ذلك مناهج تعليمها وتنوّعت على حسب ما تقتضيه حاجاتها من العلوم والفنون والصنائع لأداء وظائفها المتعددة وتحقيق مصالحها وإقامة ما عليها من فروض الكفاية المطلوبة، فضلا عن تعدّد أو تنوّع مناهجها في سياسة ما يطلب من أعيان أفرادها على وجه الإلزام أو التعميم، وهذا التباين مفهوم عند العقلاء، فهو مما لابد منه، ومما لا يفسد للودّ قضية، وقد ذكر ابن خلدون من ذلك الكثير في مقدمته في العديد من الفصول.

اختلاف طرق تعليم القرآن للولدان:

أما طرقهم في تعليم القرآن للولدان فقد اختلفت أيضا "باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من المَلَكات"[8]، كما يقول ابن خلدون، الذي يستطرد بذكر ما اطلع عليه من أحوالهم أو تناهى إليه من أخبارهم على هذا النحو:

- أهل المغرب[9]:

ومذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، لكن أثناء مدارسة القرآن يعتمدون على الرّسم القرآني، فكأنهم يتلقون هذا العلم ويتعلمون مسائله مع القرآن بطريقة عملية، ولا يفردونه بدرس خاص. كما يأخذون أثناء ذلك أيضا أوجه اختلاف حملة القرآن في روايتهم. فهم بذلك يجمعون بين ما تقوم عليه رواية القرآن الكريم من تلقيه مشافهةً وكتابةً جيلاً عن جيل. ويكتفون بذلك، لا يَخلطون به سواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أن يَحذُقَ فيه أو ينقطع دونه. فإذا حذق فيه تقدم في طلب العلوم الأخرى، أما إذا انقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة.

وتكون هذه الطريقة في التعليم في مرحلة الصبا إلى ما بعد البلوغ بقليل، كما يؤخذ بها الكبير إذا رغب في مدارسة القرآن مهما كان مبلغه من العمر.

وهذا الذي أخذوا به جعلهم "أقومُ على رسم القرآن وحفظه من سواهم"[10].

- أهل الأندلس:

ومذهبهم تعليم القرآن، ومعه - وبشكل مستقل عنه- الكتابة، فهذا الذي يراعونه في التعليم، لكنهم لا يقتصرون عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان روايةَ الشعر في الغالب والتّرَسُّلَ، كما يأخذونهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب، من غير أن تكون عنايتهم بالخط في تعليمهم أكثر من الأمور الأخرى فيه.

فلما كان القرآن عندهم أصلَ التعليم وأسَّه ومنبعَ الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم وأضافوا إليه ما أضافوه مما يدعو إليه ويتعلق به، ليكون التعليم بذلك كافيا للمقتصد منهم إذا اكتفى به أو انقطع دونه، ومؤهلا لما بعده لمن وجد إليه سبيلا.

وتكون هذه الطريقة في التعليم منذ مرحلة الصبا فيخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والمعرفة بهما، وأتقن الخط والكتاب، وتعلّق بأذيال العلم على الجملة، فغدا له حظا من كل ذلك يؤهله إلى مواصلة التعليم إن وجد سنده، لكنهم ينقطعون عن ذلك عندما ينقطع سند التعليم في بلادهم وما يحيط بها من آفاق، "ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول، وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى، واستعدادٌ إذا وُجد المعلم"[11].

- أهل أفريقية[12]:

وطريقتهم أنهم يَخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث النبوي في الغالب ومدارسة قوانين العلوم المختلفة وتلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إيّاه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه من المواد الأخرى، وعنايتهم بالخط كعنايتهم بالقرآن وتبع لها.

وبالجملة فهذه الطريقة في تعليم القرآن أقربُ إلى طريقة أهل الأندلس، كما يذكر ابن خلدون، مرجعا ذلك إلى التواصل الذي حصل باستقرار من استقر منهم بمدينة تونس وتأثيرهم في الحياة التعليمية بها[13].

- أهل المشرق:

ويذكر ابن خلدون أنه لم يعاين ما هم عليه في تعليمهم حتى يكون حكمه على طريقتهم دقيقا فيعرف بم عنايتهم فيما يدخل فيه من مكوّنات، لكن كان يبلغه عنهم - كما يقول- أنهم يَخلطون في التعليم كما يفعل أهل الأندلس وأهل أفريقية.

وخلاصة ما يُنقل عنهم في زمنه أنّ عنايَتَهم بدراسة القرآنِ وكُتُبِ العلمِ وقوانينِه يكون في مرحلة الشبيبة.

فكأنهم يأخذون الولدان في تعليمهم بدراسة القرآن وغيره مما ذكر في آن واحد ويستمرون على ذلك إلى ما بعد البلوغ ومرحلة الشبيبة.

ومما ينقل عنهم أنهم لا يَخلطون تعليم الخط بغيره، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلّمون له مختصون في تعليمه على انفراده، شأنه في ذلك شأن سائر الصنائع والفنون في كيفية تعلّمها.

ولا يتداولون الخط على أصوله في مكاتب الصبيان، وإذا كتبوا لهم الألواح فبخطٍ قاصرٍ عن الإجادة.

أما من أراد تعلُّمَ الخطِّ فيبتغيه من أهل صِنعته على قدر ما يحصل له من الهمّة في طلبه خارج المنهاج المقرر المذكور في تعليمهم[14].

- مُخرجات هذه الطرق في التعليم:

ويخلص ابن خلدون بعد عرضه لطرقهم في التعليم إلى ما ينتج عنها من مخرجات وما تحققه من أهداف تربوية وتعليمية فيقول: "فأما أهلُ أفريقيةَ والمغربِ فأفادهم الاقتصارُ على القرآن القصورَ عن ملَكَةِ اللسانِ جملةً"[15].

فيصف المتخرجين من هاتين المدرستين بالقصور عن مجارات أمثالهم من المدارس الأخرى من حيث البلاغة واللسان رغم أنهم أقومُ على رسم القرآن وحفظه من سواهم.

ويُرجع ابن خلدون ذلك إلى "أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب مَلَكَةٌ لِما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه

والاحتذاء بها، وليس لهم مَلَكَةٌ في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه مَلَكَةٌ في اللسان العربيّ، وحظُّه الجُمود في العباراتِ وقلّةُ التصرّفِ في الكلام"[16].

فإعجاز بلاغة القرآن في نظره تحول دون قدرة المعتني به المقتصرِ عليه النسج على منواله أساليب أخرى يحصل له بها ملكةٌ في اللسان العربي فيؤول أمره إلى الدوران في دائرة محدودة من العبارات لا يخرج عنها ويقلّ تصرّفه في الكلام.

وهذا ما يفسّر به ما آلت إليه مخرجات المدرستين، ويؤكد على صحة وجهة نظره تلك أن حال أهل أفريقيّة في هذا الأمر أخفَّ من أهل المغرب، مرجعا ذلك إلى ما يضيفونه إلى تعليمهم القرآن من لغة العلوم وعباراتها في قوانينها كما سبق بيانه. فيقتدرون من أثر ذلك على شيء من التصرّفِ ومحاذاةِ المثلِ بالمثلِ قلّ ما يوجد عند أهل المغرب، إلا أنَّ مَلَكَتَهُمْ لا تصل إلى حد البلاغة[17].

وفي مقابل المدرستين السابقتين يذكر أن تَفَنُّنَ أهل الأندلس في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسّل ومدارسة العربية من أوّل العُمْرِ أفادهم حصول ملكةٍ صاروا بها أعرف في اللسان العربي، لكنهم قَصَّروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصلُ العلومِ وأساسُها، إلا من تدارك أمره منهم في المرحلة الثانية من التعليم بعد الصبا فيصيرون إلى التفاوت مع تفاوتهم فيما ينالون من حظ وأدب بارع[18].

- طريقة ابن العربي:

لقد ذهب القاضي أبو بكرِ بنُ العرَبي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم، غير مألوفة فيه على أيامه، حيث ترك لنفسه العنان في إبداء وجهة نظره دون تقيد بما اعتاد عليه الناس، وقد عرضها ابن خلدون ووقف عند نقاطها مبديا ملاحظاته عليها بكل موضوعية.

وخلاصة ما جاء في طريقة ابن العربي أنه يرى تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس، معلّلا ذلك بأن الشعر ديوان العرب، ولعلّه يقصد بهذا التعليل أن القرآن - الذي هو مصدر العلوم- عربي نزل بلسان العرب وأساليبهم في الخطاب، فينبغي أن يكون حذق لغتهم

وأساليبهم فيها - التي مصدرها ديوانهم- مقدمة لفهمه، إذ فهمه وبناء العلوم عليه للعمل به هو المقصود.

ويؤكد ما قلناه أنه يدعو إلى تقديم الشعر وتعليم العربية في التعليم خوفا من فشو فساد اللغة الذي لا يقوم دونها دين. فاللغة العربية مقدمة ضرورية لإقامة الدين بإحياء علومه النابعة من القرآن الكريم أساسا.

ويرى ابن العربي أن الانتقال من تعليم العربية والشعر يكون مباشرة إلى الحساب، فيتمرّن المتعلّم فيه متدرّجا في مستوياته إلى أن يأخذ تصوّرا كافيا عن دساتيره وقوانينه. وبعد ذلك يكون الانتقال إلى درس القرآن، جاعلا من المرحلتين السابقتين مقدمة يتيّسر بها على المتعلم استيعاب هذه المرحلة الثالثة في ترتيبه كما يصرّح في مقاله.

ولعله يقصد فيما يقصد إليه من فوائد تعلم الحساب - بجعله سابقا لدرس القرآن- رياضة الفكر التي لا يصلح التعليم ويثمر إلا بها.

وينتقد ابن العربي أهل بلاده بالأندلس في تعليمهم، وقد عاش في القرن السادس الهجري، فينسبهم إلى الغفلة عن أصول التربية والتعليم ومتطلباتها، ويتعجّب من حالهم، لمّا كان يرى الصبيّ عندهم يُؤخذ بكتاب الله وما حواه من أوامر ونواهي، فَيَقرأُ ما لا يفهمُ، إذ لم يبلغه مستواه بعدُ، ويَنصِب ويتعب في أمرٍ كان الأولى به غيره، ويرون ذلك أهمَّ ما عليه.

ويرى ابن العربي أن بعد درس القرآن يكون النّظر في أصول الدين وما حواه من مسائل العقيدة، ثم أصولِ الفقه وما حواه من قواعد ومسائل، ثم الجدلِ، ثم الحديثِ وعلومِهِ. ونَهى مع ذلك أن يُخْلَط في التعليم علمان، إلا أن يملك المتعلّمُ القدرة والاستعداد بجودة الفهم والنشاط، فيكون قابلاً لذلك[19].

فهذا خلاصة ما أشار إليه، وقد حكاه عنه ابن خلدون في مقدمته معلّقاً عليه بقوله: "وهو لعَمْري مذهَبٌ حَسَنٌ إلا أنّ العوائدَ لا تُساعِدُ عليه وهي أملَكُ بالأحوالِ"[20].

فهو يميل إلى استحسانه في الجملة، مع أنه يراه صعب التحقيق لعدم توفر شروطه حينئذ، وأهمها موافقته لظروف عامة الناس ونظام حياتهم واستئناسهم به، فالمطلوب في كل قانون يراد له العموم أن يكون لائقا بالجمهور.

وبناء عليه فإن كل جهد فكري نظري يراد له الإسهام في النهوض بالتعليم وإصلاحه ينبغي أن يُعرض على المبادئ الأساسية للأمة، فإن صحّ في ميزان هذه المبادئ نُظر في مآله بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤدّ طرحه من هذه الجهة إلى مفسدة عُرض على العقول السويّة ولو على مستوى الافتراض الذهني، فإن قبلته فلصاحبه أن يطرحه إمّا على العموم إن كان مما تقبله العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كان غير لائق بالعموم، وإن لم يكن لاجتهاده هذا المساغ، ولم يُختبر هذا الاختبار، فالعدول عنه هو المطلوب لمن أراد تحقيق المصالح المعتبرة عند أولي النهى وفي عرف المبادئ الأساسية للأمة[21].

ويذكر ابن خلدون طرفا مما اختصت به العوائد من اتجاه عام في تقديم دراسة القرآن مع تفاوت طرق تعليمه للولدان، بأن آفة التعليم - وخاصة الأساسي منه- هو انقطاع طالبه عنه لما قد يعرض له من أنواع الأسباب الخاصة والعامة[22]، التي قد تتسع دائرتها أو تضيق على حسب أحوال الناس وظروفهم.

ولمكانة القرآن في نفوسهم وحرصهم على نيل حظهم منه، وطلبا للتبرك والثواب بتلاوته وحفظه، وخشيةَ ما يعرض للولد من الآفات والقواطع عن العلم فيفوتُه القرآن، فإنهم يغتنمون زمان الحَجر - الذي يكون الصبي سهل الانقياد ما دام فيه- لتحصيل القرآن، لئلا يَذهبَ خُلْواً منه.

أما إذا تجاوز البُلوغَ وخرج عن التحكّم ولم يعد سهل الانقياد، فربّما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البَطالَةِ ولم يعد قابلا للتعليم.

فالعلة البارزة في ترجيح تقديم تعليم القرآن للولدان - كما سبق بيانه- الاطمئنان على استقرار التعليم واستمراره، فلو حصَلَ اليقين بذلك لأمكن النظر في مثل ما ذكره ابن العربي والأخذ به.

وهذا ما أنهى به ابن خلدون رحمه الله كلامه في هذه القضية إذ قال: "ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقَبوله التعليمَ لكان هذا المذهب الذي

ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق ولكنَّ اللّهَ يحكم ما يشاءُ لا معقِّبَ لحكمه"[23].

والذي يظهر أن نظام التعليم في الدولة الحديثة –وخاصة الإلزامي منه- غدا أكثر استقرارا وتحكّما في رقاب ومصائر المتعلمين مما يتيح النظر في مثل ما ذكره ابن العربي أو غيره من العلماء والمربّين، المتقدّمين منهم والمحدَثين، للنهوض بتعليم يضع الأمور في نصابها، ويعيد للقرآن مكانته فيه.

أما إذا كان حظّ تعليم القرآن قاصرا عن المطلوب، في نظام تعليم أي دولة من الدول، لسبب أو لآخر، فإن في البدائل الأخرى - وما أكثرها، وقد عرضنا لطرف منها- مندوحة عن البطالة وسعة في الاجتهاد والعمل، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم.

والحاصل: أنه ليحيى التعليم القرآني لا بد أن يكون في صلب حياة الناس ومحورا لحركاتهم وسكناتهم ومصاحبا لأحوالهم، لا منعزلا محشورا في زاوية من زوايا المجتمع أو خارجه، يقصده من كان له فيه هواية أو فضول، أو "فلكلورا" يحتفي به عشاق التراث احتفاءهم بالأطلال والفنون الشعبية، أو تبارٍ ينشّط حلبات المهرجانات والقنوات.

فأمر القرآن الكريم جدّ كلّه، يتعلّق بالحاضر والمستقبل، بالعاجل والآجل، بالحال والمآل، بالمستقر والمصير. هكذا دخلنا به التاريخ فإذا لم نأخذه على هذا النحو خرجنا من التاريخ للتّوّ.

هذا وإن كثيرا من أعراض القصور والسلبية التي قد تظهر في بعض مخرجات نظام التعليم القرآني الذي يأخذ به المجتمع في أيامنا هذه إنما تعود في معظمها إلى نظرة هذا المجتمع نفسه إلى القرآن الكريم ومقامه في قيادته.

وهذا مما يُفسّر به قول عبد الله بن عمر ﷺ: "وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن، منهم الصبي والأعمى، ولا يُرزقون العمل به"، وقول ابن مسعود ﷺ: "وإن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته لا يُسْقِط منه حرفاً وقد أسقط العمل به".

فكما يكون هذا الخلل لتخلّف الإخلاص وسلامة القصد عند القارئ، يكون لتصوّر فاسد تشرّبه من واقع المحيط الذي يعيش فيه، فالأول يتعيّن عليه

وحده إصلاحه، مهما وعظه الوعّاظ وأرشده المرشدون، أما الثاني فيحتاج إلى إصلاح المجتمع والعودة به إلى الجادة والمحجّة البيضاء.

ظاهرة الشدّة على المتعلمين:

وفي معرض الحديث عن الشوائب التي قد تشوب التعليم، ومنه التعليم القرآني، ترتسم في أذهان البعض صور الشدّة على المتعلّمين، لاسيما الصغار منهم، وما يلحق بها من أنواع التضييق والقهر الخارج عن حدّ التأديب، فلهذا أيضا أثره السيئ على تلك المخرجات، والذي من شأنه أن يلحق الضرر البالغ بشخصية المتعلم، وهذا ما جنح إليه كثير من المربّين وأكّده ابن خلدون. ولعلّ كلّ واحد منا يحتفظ لنفسه بأمثلة رآها من صور وأعراض تنبئ عن تشوّهات مزمنة في الشخصية، لا تكاد تخطئها العين، لها علاقة بما نحن بصدد الحديث عنه.

فالذي يُؤخذ في تربيته بالتعسّف والقهر من المتعلّمين أو غيرهم، كالخَدم ونحوهم، يوشك أن يملأ ذلك كيانه، فيسيطر القهر على مشاعره، ويضيّق عن النفس في انبساطها، ويذهب بنشاطها، ويؤدّي به إلى الكسل، ويحمله على الكذب والتظاهر بغير ما في ضميره خوفا من أن تمتد إليه الأيْدي بالقهر، ويعلّمه المكْرَ والخديعَةَ بعد ذلك، إلى أن تصير له هذه الصفات عادةً وخُلُقاً، وفسدت عندئذ معاني الإنسانية فيه، التي بها يتأهل للحياة الاجتماعية، وأساسها الحميّة والمدافعة عن النفس والعرض والأهل والوطن، فيصير عيالا في ذلك على غيره، بل ربما كَسِلَت النفس عن اكتساب الفضائل والخُلُق الجميل فانقبضت عن غايتها ومقاصد إنسانيّتها، فيكون الانحطاط النفسيّ والاجتماعيّ والعودة إلى أسفل السافلين، فالقبول بالدونية بكل معانيها[24].

وهذا الذي يقع للأفراد بالقهر والتعسّف، يقع مثله للأمم والمجتمعات، كما دلّ عليه استقراء أحوال من وقع منها في قبضته، ولم يتخلّل زمان حكمها به منه جنوح إلى الرفق، وطال بها الأمر على ذلك حتى نال منها.

وأظهر مثال على ذلك ما حدث لليهود بسببه حتى صاروا مضرب المثل في خُلق السوء والتخابث والكيد.

واعتبارا بما سبق لا ينبغي للمربّي أو المعلّم أن يستبدّ ويتعسّف في تأديب من يعلّمه أو يربّيه حتى لا يشوّه فطرته التي فطره اللّه عليها.

ومما نقل في هذا المعنى قول عمر بن الخطاب ﷺ: "من لم يؤدّبه الشّرعُ لا أدّبه اللّه".

أي أنّ المقدار الذي عيّنه الشّرع كاف في تأديبه وردّه إلى رشده فإنه أعلم بمصلحته، فلا حاجة إلى الزيادة عليه، بل يجب الوقوف عند ما حدّه، حرصا على صون النفوس عن مذلّة التأديب.

فكأن سيّدنا عمر ﷺ يرى اللجوء إلى التأديب خلاف الأصل، فهو ضرورة يجب أن تقدّر بقدرها، وهو الذي اشتهر عنه قوله: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!!".

خلاصة ونتائج وتوصيات:

يمكن أن نستخلص من هذه الدراسة بعض النتائج والتوصيات استنادا إلى واقع التعليم القرآني في بلدنا لعلّها تساهم في تقويمه وإحيائه، نجملها فيما يلي:

1- القرآن الكريم هو مصدر العقيدة والشريعة، ومنبع الأخلاق الكريمة والفضائل السامية الرفيعة، وسِجِلُّ الدروس والعِبَر مِن واقع الأمم، وهو معجزة النبي ﷺ العظمى الخالدة، وخطاب اللّه ورسالتُه إلى كل إنسان، أرسلها بواسطة سيدنا محمد ﷺ. فكان تعليم القرآن الكريم، وخاصة في الصّغر، أمر لا بد منه عند جميع فئات الأمة الإسلامية، وفي مختلف عصورها، وهو أساس في نظام تعليمها، وينبغي أن يكون كذلك عندنا. فتحقيق ذلك من الواجبات الشرعية والوطنية، لأننا مسلمون أكرمنا اللّه بالإسلام وأَعْلَنَّا التزامنا به في هذه البلاد منذ قرنه الأول، ولأنّنا نسعى لاستكمال استرجاع سيادتنا بإتمام إصلاح ما أفسده المستعمر.

2- لا بأس أن تختلف طرق تعليم القرآن الكريم، لأنّ الأساس في ذلك الاجتهاد، لكنه اجتهاد تعضده الخبرة العملية، ويأخذ في الحسبان واقع الناس وأحوالهم وما تعوّدوا عليه وجرّبوه، فينبغي موافقة ومراعاة التوجّه العام في المحيط الذي نعيش فيه ما أمكن، بحيث لا يترك ما اصطُلح عليه وثبتت جدواه ويُصار إلى غيره من أساليب وطرق لم تنل كفايتها من الفحص والاختبار. فمثلا

ما يتعاطاه الناس عندنا من أساليب في تحفيظ القرآن باللوح يجب أن لا يُستعجل باستبدالها بأخرى قد يدّعي أصحابها أنها كفيلة باختزال مدة حفظ القرآن الكريم إلى بضعة أيّام أو أسابيع. ولا يفوتني أن أنبّه هنا أنّ المقصود بإطلاق لفظ الاجتهاد ليس المعنى الاصطلاحي الفقهي، وإنما هو الاجتهاد العام الذي تتّسع دائرته لتشمل ألوانا كثيرة من التفكير والبحث والتقدير.

3- تعليم القرآن يحتاج إليه كل مسلم مهما كان توجّهه في الحياة وما يتطلّع إليه في قابل الأيام، فهو ليس تعليما تخصّصيا قاصراً على فئة دون أخرى، فينبغي أن يراعى في صياغة برامجه التعميم والمرونة ومراعاة الفروق الفردية، كما تقصد في موضوعه الحدود والمستويات المطلوبة لهذا التعميم. وعلى ذلك فإن جمع القراءات رواية وأداءً وطلب الاستكثار منها لا يصلح عباءةً ورايةً لهذا التعليم، لأنه يتّجه إلى الخواص والصفوة من الناس لا إلى عامتهم. فعلم القراءات من فروض الكفاية التي تتحقق في الأمة ببعض من وفّقهم الله منها، ولا يتأكد نشره على العموم. بل من شأن الترويج للقراءات باتخاذها سقفاً وشعاراً للتعليم القرآني أن يؤثّر سلباً عليه فلا تتحقّق مقاصده، ويشوّش عليه ويُربكه. فمثلا ينبغي أن يكون الكلام عن مدرسة أو زاوية أو معهد أو دار أو برنامج للقرآن تعليما أو تحفيظا ونحو ذلك هو البارز للعيان وأكثر ما يطرق الأسماع، وفي مقابله ينبغي أن يكون الحديث عن معهد أو مدرسة أو علم أو جمع القراءات القرآنية ونحوه ضيّقا لا يبلغ مسامع العامة وأبصارهم إلا في ثوب الاختصاص الذي لا يعني أكثرهم، لأنه في حقيقة الأمر كذلك، مع التواصي بالتوجيه إلى صيانة هذا العلم وإجلال حامله لشرف ما تعلّق به.

4- قراءة القرآن قربة عظيمة إلى الله تعالى، فهي نعمة جليلة أنعم الله بها على عبده، فيناجي فيها ربّه بكلام الله، ويترقّى بها في مدارج الإيمان والمعارف والطاعة والتقرّب إلى الله؛ لذلك كان لها أحكام وآداب تجب على كل قارئ معرفتها ومراعاتها في قراءته لكتاب الله، وينبغي أن تمثّل جوهر ما ينبغي الاعتناء به في تعليم القرآن الكريم، فيؤخذ بها الصغير في تعلّمه القرآن، كما يجب أن يعود إليها من لم ينل حظّه منها من الكبار فيتواضع بتعلّمها عند أهلها، فكم رأينا من علية المسلمين ومثقّفيهم، بل ومن ذوي المناصب والوظائف

الدينية فيهم، فضلا عن عامتهم، من لا يحسن منها حتى القليل الذي يسدّ الخلل ويستر عورة التقصير. وهذه الأحكام والتوجيهات تقوم على ركنين هما أصل لغيرهما، وهما: التدبُّر، والترتيل؛ أما التدبر فيلازمه الخشوع، فيكون التدبّر في معاني الآيات بالتفكّر فيها، وخشوع القلب لعظمة الله تعالى، هما المقصود الأعظم الذي به تنشرح الصدور وتستنير القلوب، والنصوص في ذلك كثيرة ومشهورة. أما ترتيل التلاوة فهو مطلب جليل أمر الله تعالى به؛ فقال: (ورتّل القرآن ترتيلاً) [المزمل4]، فينبغي أن تعتني برامج تعليم القرآن الكريم بالتعريف به وبيان حدوده وإبطال الأوهام التي علقت به في الأذهان، فكثير من الناس أصبح يعتقد أن تجويد القرآن وترتيله موهبة صوتية كمالية يتجمّل بها الهواة والمحترفون، ويتبارى فيها المتبارون، وتعقد لها المسابقات والجوائز، والأمر ليس كما يظنّون، بل هو في الجملة فريضة عينية كما يدل عليه أمر الله المؤكّد في الآية السابقة[25]، ولو تعلّق بالأصوات الشجيّة ما كان حكمه كذلك؛ لأن وجودها في الناس قليل. وتفصيل الأمر فيه أن للترتيل حداً أدنى واجباً، وحدَّ كمالٍ مستحباً: وحدّ الترتيل الأدنى وهو الواجب: تبيين الحروف، وألاّ يقع فيها تداخل، ولا إخلال بمخارج الحروف، أو بواجب التلاوة: من إظهار، وإدغام، ومدٍّ، وغير ذلك. وتمرين المسلم لسانه على ذلك واجب، وله فيه أجران، كما ثبت في السنة الصحيحة[26]. وأقلّ ما في التقصير في ذلك الخوف من أن يسقط من حسنات المقصِّر بعضها. وكمال الترتيل: أن يعطيَ الأداء حقه التام، فَيَمُدَّ المدود بكمالها ويتأنى في القراءة، ويسكتَ بين النَّفَسِ والنَّفَسِ، ويراعيَ الوقوف، وهكذا... وأكمل الترتيل: أن يتوقّف على الحروف والمدود بما لا يخرج إلى التمطيط، ويقرأ القرآن على منازله: فإن كان يقرأ تهديداً لَفَظَ به بِلَهْجَةِ المتهدِّد، وإن كان يقرأ كلام تعظيم قرأه على التعظيم، وهكذا...[27]. قال الإمام النووي[28]: "واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع ويسمّى الهَذَّ، قالوا: وقراءةُ جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قَدْرِ ذلك الزمن بلا ترتيل". هذا وكيفية الترتيل محفوظة بالنقل مشافهة وبالسند المتصل الذي لا انقطاع فيه، فمن أراد أخذها أخذا صحيحا على أصولها فما عليه إلا أخذها عن شيخ مجاز في الرواية التي يقرأ بها ويقرأ بها عامة من يحيط به.

5 - كما يكون التّوجّه في تعليم القرآن الكريم إلى الاعتناء بأحكام وآداب قراءة القرآن الذي يتناغم في أصلها ركنان: ركن التدبّر والخشوع، وركن الترتيل. لما للترتيل من أثر بالغ في القارئ والسامع، يتجلّى بحضور القلب وكمال المعرفة، ممّا يؤدّي إلى التدبّر والخشوع. يكون التّوجّه في تعليم القرآن الكريم أيضا إلى الاعتناء بحفظه في الصدور، لما جاء من التأكيد على استظهار القرآن في الصدر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:40،32،22،17]. وقد قرّر الفقهاء إجمالا أنّ حفظَ ما تصحُّ به الصلاةُ فرضُ عينٍ على كلّ مكلّفٍ، وحفظَ جميع القرآن فرضُ كفاية، لكنه من أفضل القربات لما تواترت به الأخبار. ومع استمرار الاعتناء بحفظ القرآن في بلادنا، فإن كثيراً ممّن يرغب في حفظه، أو تحفيظه لمن هم تحت ولايته، لا يكاد يجد - في كثير من المناطق-سبيلا إلى تحقيق رغبته، فضلاً عن أن يكون ذلك على أكمل الوجوه أو على الوجه المقبول. فإذا كانت الزوايا - مثلا- وما شابهها تستقبل بعض المتفرّغين لحفظ القرآن، فمن يرافق - مثلا-تلاميذ وطلاب المؤسسات التعليمية في المدن والأرياف والبوادي في حفظه، لما يتطلّبه الأمر من التكيّف مع طبيعة ومتطلّبات ارتباطهم بهذه المؤسسات، خاصة مع ضعف وتذبذب أداء الكثير من المساجد لهذه الوظيفة السامية كما هو مشاهد؟ فينبغي أن تكون هناك برامج متنوّعة لتحفيظ القرآن الكريم، تتكيّف مع مختلف الأوضاع والأحوال التي يكون عليها الناس، يقوم بها من تأهّل من مختلف الأفراد والهيئات والجمعيات وغيرها. ولا حرج أن يكون قيامهم بهذا الأمر بالتطوّع أو بالمقابل المادي. وكلّما كانت هذه البرامج قريبة من الناس وتراعي ظروفهم كلّما ازداد الإقبال عليها لكثرة المتعطّشين المحصورين عن تحقيق رغبتهم في حفظ القرآن.

6- بناء على ما تقدّم في البندين السابقين فإنه يجب الالتزام في إقراء القرآن وتحفيظه بالرواية السائدة في بلادنا، التي تعوّد عليها الناس، وجرت عليها قراءتهم ومذاكرتهم، وضبطت عليها مصاحفهم، وهي رواية ورش عن نافع من طريق الأزرق، وتجنّب التشويش عليهم بطرق وروايات وقراءات أخرى، حتى يتفرّغوا لمقاصد القرآن وتتّجه إليها هممهم، إلاّ من رام الاستزادة أو التخصّص

منهم في القراءات القرآنية بشروطه إن قدر عليها والتزم الوفاء بها. ونظرا لتقدّم التأكيد على القراءة الصحيحة للقرآن الكريم بالأمر بترتيله على حفظه في الصدور - كما رأينا- ، ولعموم البلوى بالتقصير في ترتيله على الوجه الصحيح في بلادنا حتى ممن هم محل قدوة وإمامة في الدين، وحرصا على تعميم القراءة الصحيحة له ما أمكن وعلى أوسع نطاق، ينبغي فصل برامج تعليم الترتيل والإقراء عن برامج تحفيظ القرآن. فلا يشترط لمن يريد تعلّم ترتيل القرآن وتحمّل الرواية من الشيخ المجاز فيها حفظ ما يقرأ لروايتها، فإن فعل فقد أتى بالأكمل والأولى. فهناك من يعجز عن حفظ القرآن كلّه أو بعضه، أو تحول بينه وبين ذلك موانع، أو يمتنع هو عن ذلك لسبب من الأسباب كالخوف من التبعات مثلا، لكنّه لا يعجز عن إتقان ترتيله، وهو في ترك الحفظ لم يأت بمحرّم وفي إتقان الترتيل أتى بواجب. وكما تكون الرواية من حفظ الراوي تكون من كتابه. وعليه فإن الحافظ يلزمه الترتيل ولا يلزم المرتّل الحفظ.

7 - يتعلّل البعض في تركه ترتيل القرآن في الصلاة بخشية الإطالة ودفع الحرج، خاصة إذا أمّ أحدهم الناس فيها، وكأنّه يقول بأن لا جدوى من تعليم ذلك وأنّ فعله تكلّف، وفيما سبق إشارة إلى تهافت هذه الدعوى، فقراءة آية أو آيتين بالترتيل خير من قراءة مثليها بالهذّ، فالإكثار مع تخلّف شرطه هو التكلّف بعينه. هذا وقد يرخّص في ترك بعض أحكام الترتيل الكمالية لاعتبارات تعليمية كالتكرار والمذاكرة. كما يرخّص عند المالكية للمرأة الحائض لا الجنب مسّ المصحف وقراءة القرآن لضرورة التعلّم والتعليم فقط لا القراءة من أجل التّعبّد وغيرها، فلا يضطرب بذلك نظام ووتيرة تعليم الفتيات والنساء إذا كان خارج المسجد. واستثني المسجد لأنه لا يرخّص للمرأة الحائض والجنب دخوله كما هو معلوم.

8- الأساس في التعليم القرآني هو تلك العلاقة بين التلميذ المتلقّي للقرآن من شيخه والشيخ المتأهّل لذلك. لذلك فالتعليم القرآني يتسم بالمرونة، فلا يحتاج إلى وسائل كثيرة لا يقوم إلا بها، ولا حتى إلى مقرّ بعينه، فقد يكون في مدرسة أو مسجد أو بيت أو دكّان أو في الفلاة أو في الشارع أو تحت شجرة أو خيمة أو غير ذلك، ويكفي الاطلاع على أحوال المسلمين في تعليمهم للقرآن في آسيا وإفريقيا

في أوساط متباينة ومختلفة لإدراك ذلك بسهولة ويسر. وقد رأينا من ذلك في دمشق مثلا الطبيب الذي يقرئ القرآن في عيادته، والتاجر الذي يقرئ القرآن في متجره، والحرفي الذي يقرئ القرآن في ورشته، إلى جانب من يستقبل من الشيوخ الطلاب في بيته أو المسجد أو المعهد، فلا ينبغي الوقوف بالتعليم القرآني عند قوالب جامدة لا نتعداها.

وفي الأخير نسأل الله لنا ولجميع المسلمين التوفيق والسداد وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

قائمة المراجع

- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، بدر الدين، ط. دار المعرفة، بيروت.
- الجامع صحيح، للبخاري، محمد بن إسماعيل، ط. دار السلام، الرياض.
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ط. دار الحديث، القاهرة.
- الصحيح، لمسلم بن الحجاج النيسابوري، ط. دار السلام، الرياض.
- كيف نتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها، للدكتور نور الدين عتر.
- لسان العرب، لابن منظور، ط. دار الفكر، دمشق.
- المجموع شرح المهذّب، للنووي، ط. مطبعة العاصمة، القاهرة.
- مفاتيح الغيب، للرازي، فخر الدين محمد بن عمر، ط. المطبعة البهية، مصر.
- المقدمة، لابن خلدون، عبد الرحمن، ط. مؤسسة الأعلمي ببيروت، لبنان.
- الموافقات في أصول الفقه، للشاطبي، أبو إسحاق، ط. دار المعرفة، بيروت.

الهوامش:

(1) المشهور بين الناس قديما وحديثا بصحيح البخاري. والعنوان الكامل الذي سمى البخاري نفسه كتابه هذا به هو: " الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه"، وفي رواية: أنه سماه "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه".

(2) وهو الفصل الواحد والثلاثون، انظر: مقدمة ابن خلدون ص 537، ط مؤسسة الأعلمي ببيروت- لبنان.

(3) وهو الفصل الثاني والثلاثون، انظر: المرجع السابق ص 540.

(4) مقدمة ابن خلدون ص 537.

(5)المرجع السابق نفسه.

(6) المرجع السابق نفسه ص 537- 538.

(7) المرجع السابق نفسه ص 538.

(8)المرجع السابق نفسه ص 538.

(9) وهم كما يقول ابن خلدون: "أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب". المقدمة ص538.

(10) مقدمة ابن خلدون ص 538.

(11) المرجع السابق نفسه.

(12) والمقصود بهم أهل تونس.

(13) انظر: مقدمة ابن خلدون ص 538.

(14) انظر: المرجع السابق نفسه ص 538- 539.

(15) مقدمة ابن خلدون ص 539.

(16)المرجع السابق نفسه.

(17)انظر: المرجع السابق نفسه.

(18)انظر: المرجع السابق نفسه.

(19) انظر: المرجع السابق نفسه.

(20) المرجع السابق نفسه ص540.

(21) انظر في هذا المعنى: الموافقات للشاطبي 4\138- 139. ط. دار المعرفة. بيروت.

(22) وهو ما يعبر عنه في أيامنا هذه بالتسرّب المدرسيّ.

(23) مقدمة ابن خلدون ص 540.

(24)انظر: المرجع السابق نفسه.

(25) انظر في بيان ذلك: لسان العرب مادة (رتل)، تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج19ص36، مفاتيح الغيب للرازي ج3ص173.

(26)انظر: صحيح البخاري في تفسير (سورة عبس)، وصحيح مسلم في صلاة المسافرين (فضل الماهر بالقرآن...).

(27)انظر: كتاب "كيف نتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها" لشيخنا الدكتور نور الدين عتر ص59وما بعدها، والبرهان للزركشي ج1ص449- 450.

(28)المجموع شرح المهذّب للنووي ج2ص179.